قبل الزلزال

ربّاهُ عفوك ، إني كافرٌ جانِ جوّعت نفسي وأشبعتُ الهوى الفاني
بعتُ في الناسِ أهواءً محرّمةً وقلتُ للناسِ قولاً عنهُ تنهاني
عصيتُ ما أنزلَ حكّامكَ على عيسى وطه بانجيلٍ وقرآنِ
ولم أُفق من جنون القلب في سُبُلي إلاّ وقد حَمَتِ الأهواءُ إيماني
ربّاهُ عفوك ، إني كافرٌ جانِ !

***

لكَمْ دعتني الى الفحشاءِ أميالُ فأنذرتني تجاريبٌ وأهوالُ
إن التجاريب للألباب موعظةٌ لكنها لأُلي الاضلال اضلالُ
تلك الليالي المواضي لا يزال لها بين الحرائب في عينيَّ أطلالُ
وا حسرتاه ! وقلبي لا يزال لهُ في لذة العار أوطارٌ وآمالُ

لمّا استفاقت عيوني في ذلّتي وهواني
عزمْتُ أن ألمرّى من شهوتي فتاني
وقال لي : « الحكمُ حكمي والأمرُ طوعُ بناني
لا تستطيع التعصّي في الحبّ عن سلطاني
والحبّ لا يتغذى إن لم يكن شهواني ! »
فلم أجد لي مَنيصاً يوماً من الإذعانِ
فصرتُ أغذوهُ عاراً والنفسُ في تيهانِ
وصار يُسكِرُ روحي بنشوةٍ خفقانِ
بنشوةٍ من لهيبٍ ولفحةٍ من دخانِ
حتى ظننتُ نعيمي في ذلك البركانِ
ربّاهُ عفوك ، إني كافرٌ جانِ !

***

وطّأتُ لي كَنَفَ الدنيا فقلتُ قِفي يا نفس في سهل اللذات وارتشفي
ومال مذهب طبعي عن سجيّته حتى تقلّبَ في بُطلٍ وفي صَلَفِ
وغابَ عنيَ أني عشتُ تبتت على جوانب إبريقٍ من الخزفِ
على جوانب إبريقٍ اذا نظرت عينٌ الى عتقهِ انحطّت على تلفِ
فخّارةٌ ذاتُ تنٍ قديمةٌ كالزمانِ

مرّت قرونٌ عليها نشابَ لونُ الدهانِ
ومهّدَ النتنُ فيها مـارب الديدانِ
فخارةٌ دنّسها خواطرُ الانسانِ
تخاصمت جانبيها مظالمُ الأديانِ
كأنما الدينُ فيها ضربٌ من الويل فانِ
كم مرقدٍ أوعدتها نوائرُ النيرانِ
وكم تفجّرَ فيها بالأمس من بركانِ
تبقى قروناً طوالاً وتمّحي في توانِ
خزّافُها ذو جنانٍ حيناً وذو سلطانِ
ينهى ويأمرُ بالصاعقاتِ والنيرانِ
ديدانُها سكراتٌ بخمرة التبغانِ
والتاجُ، لو هي تدري، منَ الهوانِ
ربّاهُ عفوك، إني كافرٌ جانِ!

***

فخّارةٌ جُبلت بالدمعِ والطينِ من عهد قايينَ أو من قبل قايينِ
نيرونُ أضرمَ فيها جمرَ مقلتهِ تلك البراكينُ من أجفانِ نيرونِ
تبادرتها من الديدانِ طائفةٌ أبطال حربٍ من الصلبِ المجانينِ
ما كان إسكندرٌ فيها سوى شبحٍ يحجّبُ الشمسَ عن عينيْ ديوجينِ
ما كان جنكيز إلاّ شرارةً في الكيانِ
تضرّمت وتوارت بين الرمادِ الفاني
ربُّ المغولِ إلهُ النيرانِ والعصيانِ
ثارت عليهِ — كما ثار — سُنّةُ النيرانِ
والنارُ تمحقُ إلاّ التذكارَ في الأذهانِ
أبقت الى الفُرسِ ذكرى كِسرى أنوشروانِ
وقوّضت ما بناهُ من شاهقات المبانِ
لم تُبقِ إلاّ بقايا خورنقٍ النعمانِ
تلك البقايا عظاتُ الزمانِ للانسانِ
تلك البقايا رموزٌ لسُخريات الاماني!
أين الذي شيّدتهُ جلائلُ الرومانِ؟
حلمٌ من المجد أبقى أسطورة في اللسانِ!

شرعُ المقدورِ ألاّ يَبقى سوى الحسرانِ
أمّا الكمالُ فلمْ في هيكلِ النقصانِ
يُرقى اليهِ ويبدأ على متونِ الزمانِ
على الإرادةِ والتضحياتِ والسرفانِ
حتى إذا حُكّ كان الكلامُ للطوفانِ
وكان للنار رأيٌ وللدمارِ يدانِ !
أمُّ الزلازل طوّافةٌ بكل مكانِ
آثارُها باقياتٌ وقفاً على الاجفانِ
والناسُ — واحسرتاهُ — إثنانِ مختلفانِ !
أعمى لهُ مقلتانِ في العقلِ مبصرتانِ
ومبصرٌ أظلمتهُ عينانِ لا تريانِ !

***

تُرى مَنيتك العليا تناديني بثورة النار في تلك البراكينِ ؟
ربّاه ! هل ينتهي حلمي ببارقةٍ من اللهيب ويخبو الطينُ في الطينِ ؟
وهل ارى زاحفاً في الليل ملتهباً بجمرة السخطِ في ايدي الشياطينِ
أدعوك ، والظلمة الحمراء تحرقني ، فلا تجيبُ ، وتلوي لا تجيبني ؟!
أعرضتُ عنك غداة القلبُ ضلّلني كأنّ شهوة قلبي عنك تغنيني
وحين أوقظتُ من سكر الهوى خجلاً بحثتُ عنك ، وكاد العار يخفيني
فلم تُسل تلبك الرحمنَ عن ألمي وقلتَ : « تطلبني بين الماكينِ ! »
لكنني عدتُ بعد التفكير عن تيهاني
الى ذنوبٍ جامٍ كثيرةِ الالوانِ
ملوّثاتٍ بدمعٍ مخضّباتٍ بقانِ
وقلتُ للقلب : أطلقْ في الموبقات عناني
طيفُ الاله بعيدٌ وعينهُ لا تراني ! »
وقيل يومٌ عصيبٌ ينقضّ قبل الاوانِ
تنفذ النارُ فيهِ والحكمُ للديّانِ !
فرحتُ أسأل نفسي الدفاعَ عن كفراني
فلم أجد من يحامي عني سوى بهتاني !
ربّاهُ عفوك ، إني كافرٌ جانِ !

بيروت — الياس ابو شبكه